

عندما سألتني ابنتي عن الله (3)

الإيمان بالقدر

د. عزة رمضان العابدة



ع

مطوية رقم (١٠) | مسلسل ١٤٧ - اصدار ٢٠٢٢

مبادرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

يـومُ الجُمعـةِ هـو الموعِدُ الأسـبوعي لزيارة جَدَّتي في بيتها الذي يبعد مسـافةً قليلةً عـن بيتنـا. صلَّيـتُ أنـا وأمي العصـر في جماعـةٍ كمـا هي عادتنا، وبعـد الـصلاة، انطلقنا بسيَّارتنا. وبينما كنَّا نسير في أحد الشوارع المؤدية إلى بيت جدتي، وجدتُ إعلانًـا عـن عـرضٍ مميَّـز في المسـرحِ المفتوحِ في المسـاء؛ فطلبت من أمِّي أن نحجز تذكرتيـن للحضـور. كان الطريـق إلى شـباك التذاكـر مزدحمًـا، فاقترحـت أمي أن نذهـب إلى بيـت جدتي أولًا؛ حتى لا نتأخـر عـن موعدنـا معهـا، وبعـد ذلك نأتي لمشاهدة العرض، عندها يكون الزحام قد انتهى، ويسهل علينا الدخول.



وصلنا إلى بيت جدتي وأمضينا معها وقتًا ممتعًا، حيث قدّمت لنا بعض أصناف الطعام التي نحبها، ثم أخذت تحكي لي بعض الحكايات، بعد تجاذبت أطراف الحديث مع أمي، واطمأنت على أحوالنا. وبينما كنت أستمع إلى حكايات جدتي سمعنا صوت الرعد مؤذننًا بهطول المطر. كانت أمي قد ذهبت إلى المطبخ لتعدّ لنا مشروبًا، فأسرعتُ إليها لأخبرها أن المطر سيهطل، ومن ثمَّ سيتوقف العرض المسرحي الذي كنا نريد حضوره هذا المساء. **فقالت أمي:** إذا لم نتمكن من حضوره هذه المرة، فإني أعدك أن نذهب إليه في مرة أخرى فور الإعلان عنه.



عندها تساءلتُ وأنا حزينة: لماذا يسقط المطر في هذا اليوم بالذات؟

أنا أسمعكم دائما تقولون إن المطر خير، فكيف يكون خيرًا وقد منعني من مشاهدة العرض الذي أحبه وأنتظره؟!

هنا تدخَّلت جدتي وقالت: تعالي يا حبيبتي، واجلسي هنا بالقرب من المدفأة، وأنا سأجيبك عن هذا السؤال. ذهبتُ وجلستُ بجوار أمي وجدتي، ودار بيننا هذا الحديث:



الجدة: المطرُ نعمةٌ من الله عزَّوجل، بِهِ ينبتُ الزَّرع، وتخرجُ الزُّهور والأشجارُ والثِّمارُ التي نتغذَّى عليها ونستمتعُ بها.

فالفلاح الذي يعمل في حقله ينتظر المطرَ في موسم الشتاء لأن المحاصيل الشتوية تحتاج إلى المطر، كما أنَّه مفيدٌ للغلاف الجوي والبيئة بشكلٍ عام. ورغم أنه مفيدٌ ونافعٌ، فإنَّ بعض الناس قد يتضرر منه في بعض الأحيان؛ فيتضرر منه عمال البناء، والباعة الجائلون، والعاملون في الأسواق، وقد يحدث مثل ما حدث معكِ اليوم من إلغاء العرض المسرحي فتتأثرين، فهل معنى ذلك أن ننكر أنّ فيه خير؟!







دعيني أضرب لكِ مثالًا آخر: هل سمعتِ مرة عن سقوط طائرةٍ تُقلُّ الركَّاب من بلدٍ إلى آخر؟

البنت: نعم يا جدتي، من وقت لآخر يأتينا خبرٌ عن سقوط إحدى الطائرات.

الجدة: هل يعني ذلك يا بنيتي ألَّا نسافر في الطائرة؟

البنت: بالطبع لا.



الجدة: إذن يا بنيتي قد نرى الأمر في ظاهره الشَّر وبداخله يكون خير، وقد يكون خيرًا يحوي معه بعض الشر؛ فالخير والشر متلازمان في هذه الحياة، بمعنى أنَّ أحدهما لا يظهر في وجود الآخر، ولا نستطيع أن نعرف أحدهما إلا إذا عرفنا الآخر، هذه هي طبيعة الدنيا كما خلقها الله وأرادها؛ فنحن نمرض فنعرف نعمة الصحة، نجوع فنعرف لذة الطعام وأهميته، نبرد فنعرف إحساس الدفء، وغير ذلك ... فالدنيا ليست كلها خير وليست كلها شر، لذلك أمرنا رسولنا الكريم ﷺ بالإيمان بالقدر خيره وشره، الذي هو الركن السادس من أركان الايمان،كما جاء في الحديث الشريف: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"

البنت: جدتي هل توضحين لي ما المقصود بأن نؤمن بالقدر؟

الأم: بنيتي، لقد توقّف المطر منذ قليل وينبغي أن نذهب، وسنكمل الحديث حول القدر في طريقنا إلى البيت.

البنت: كما تشائين يا أمي.



وبعد أن ودَّعا الجدة وذهبا، وهما في طريق العودة، أعادت البنت السؤال على أمها مرة أخرى.

البنت: أمي ما معنى أن أؤمن بالقدر؟

الأم: القدر يا حبيبتي هو الركن السادس من أركان الإيمان، كما جاء في الحديث الشريف الذي ذَكَرَتْهُ جدتك، ومعناه أنَّ الله سبحانه وتعالى قدَّر كل شئ في الكون، كل شيء من أصغر ذرةٍ إلى أكبر مجرةٍ: فالشمس لا تضئ إلَّا بتقدير الله، والنبات لا يُثمر إلَّا بتقدير الله، حتى الانسان عندما يلعب ويمرح فهذا كله بتقدير الله عزوجل، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩). لأن الله عزوجل هو العالم بكل شئ والقادر على كل شئ.

البنت: ما دام الله قد قدَّر كل شيءٍ وهو يعلم كل شيءٍ قبل أن يحدث، فلماذا سيحاسبنا في الآخرة؟ نحن ننفذ ما يريده الله بنا في الدنيا، أي أننا ليس لدينا اختيار في أي شيءٍ؛ مِثْلُنا مثل الآلات الروبوتات التي يصنعها الإنسان ويتحكم فيها.

الأم: لا يا بُنَيَّتِي، لسنا كذلك، وليس معنى أنَّ الله قَدَّرَ كل شيءٍ أنَّنا مجبرون طول الوقت. دعيني أضرب لك مثالًا يوضح لكِ معنى أنَّ علم الله مسبقٌ بالاشياء التي ستحدث لا يُجبرنا على فعل هذه الأشياء: المُعلمة عندك في الفصل تعرف مستوى الطلاب الموجودين جميعا، وبالتالي تستطيع تحديد من سيمكنه النجاح في الامتحان من زملائك بتفوق، ومن لا يمكنه ذلك، ومن سيتميَّز، وذلك مبنيٌّ على علمها ومعرفتها السابقة بكم، أليس كذلك؟



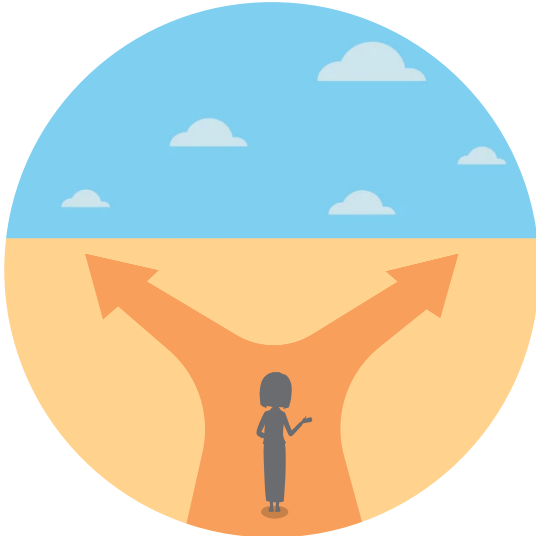


البنت: نعم يا أمي، فالمعلمة معنا منذ وقت طويلٍ، وهي تعرف كل واحد منا على حدة.

الأم: هل مجرد علمها هذا هو سبب نجاحكم أو رسوبكم، وهل هذا العلم هو الذي يُملي على الطلاب ماذا يفعلون أثناء الامتحان ويجبرهم عليه؟

البنت: بالطبع لا يا أمي، فالطلاب مسئولون عن أنفسهم، من يجتهد ويذاكر ينجح.

الأم: بالضبط يا حبيبتي، هكذا هي الدنيا؛ امتحانٌ كبيرٌ، والله عزوجل قال عن الإنسان: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، أي طريق الخير وطريق الشر، وقال أيضا: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، والانسان له أن يختار وهو مسئول عن اختياره في الدنيا، وسيحاسب عليه يوم القيامة.



والله عـزوجل يـا بنيتي لا يظلم أحدًا، فقد أخبرنا سـبحانه وتعالى عن نفسـه ذلك حين قـال: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لا يَظْلِـمُ النَّـاسَ شَـيْئًا وَلَكِـنَّ النَّـاسَ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ﴾ (يونـس:٤٤). وقـال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَا وَمَـا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦). أي من يفعل الخير سيعود جزاء هذا الخير عليه في الدنيا والآخـرة، وكذلـك مـن يفعـل الأمـور السـيئة فإنه سيحاسـب عليها ويتحمـل نتيجة فعلـه مهمـا كان صغيـرًا، وأنـتِ تحفظيـن سـورة الزلزلـة التي تتحـدث عـن يـوم القيامة، ماذا قال لنا الله في آخرها؟

البنت: جاء في آخرها...

فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ (٧)

وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُ (٨)





(سورة الزلزلة: ٧ – ٨)

وقد شَرَحَتها لنا المعلمة في حصة الدين.

الأم: دعيني أسألك سؤالا آخر ربما يوضح لك ما أريد قوله: ألم تشعري مرةً بالتَّردُّدِ عند شرائك بعض أشيائك، أو أثناء الخروج لمكانٍ معين مع زميلاتك؟

البنت: نعم يا أمي، إنني أحيانًا أجد صعوبةً في أخذ قرار عندما أريد أن أشتري بعض الملابس أو الهدايا لزميلاتي.

الأم: إذن نحن لنا إرادةٌ نختارُ بها الأشياء وإلَّا لما ترددنا هكذا، لو كنا مثل الروبوتات لتوجهنا مباشرة الى ما سيحدث دون تفكيرٍ أو تردُّدٍ.

ولو نظرنا حولنا وفكَّرنا في أحوالنا نجد أمثلةً كثيرةً تُثبتُ لكِ أنَّ الله خلق فينا إرادةً واختيارًا؛ فالمريض إذا كان مرضه شديدًا، هل من الطبيعيِّ أن يقول إن الله قد كتب عليَّ المرضَ فلن أتناول الدواء، أم إنه يذهب إلى الطبيب ليعالجه فيُشفى بإذنِ الله؟



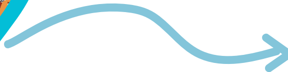


مثله مثل الطَّالبِ الذي اقترب موعد امتحانه، أمامه طريقان: إمَّا أن يذاكر ويجتهد وينجح، ويعود نجاحه عليه بالنفع، وإما أنْ يهمل دروسه فيَرْسُب، وهو من يتحمَّل نتيجة إهماله، ويندم على فعله. ولا بد أن نسأل أنفسنا: لماذا ننشط ونتحمَّس إذا كانت هناك منفعة أو مصلحة نريدها، ولا نتحجج بالقدر؟

البنت: معكِ حق يا أمي، لكن في بعض الأحيان عند حدوث أزمة أو مصيبة كمرضٍ خطيرٍ أو موت شخصٍ نحبه مثلا، أو ابتلاءٌ معيَّنٌ، نسمع من يعترض ويقول: لماذا كتب الله عليَّ هذا؟ ولماذا أنا بالذات من بين كل الناس؟






الأم: نعم يا بنيتي، فالبعض عندما يبتليه الله ببعض الصعوبات او الشدائد التي يختبرنا الله بها، لا يكون لديه القدر الكافي من فهم طبيعة الدنيا، فيظن انه جاء هذه الدنيا ليتنعم فيها فقط، ولا يدري أن الدنيا هي اصلا دار ابتلاء وتكليف، وإننا هنا في امتحان كبير، علينا أن ننجح فيه حتى ننال رضا الله عزوجل، ونتنعم في الحياة الآخرة. وقد أعطانا الله ما نحتاج إليه من الوسائل والمعلومات التي نستطيع بها أن نحقق ما يريده الله منا، وعلينا أن نؤمن أنَّ من يصبر على الشدائد والآلام سيكون له أجرٌ كبيرٌ في الآخرة؛ لأن الله هو من أخبرنا بذلك: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠). ولا بد يا ابنتي أن نعلم جيدًا أن الله لا يحتاج إلى شيءٍ، ولن يستفيد شيئًا، ولن يتضرَّر من أي شئ، لأنه سبحانه هو الإله الملك الغني وهو الضَّار وهو النَّافع.



عندما تكون هذه الأمور واضحةً أمامنا، يكون من السهل علينا أن نفهم معنى القدر، وأن نعرف دورنا نحن في هذه الحياة، وأنَّ نعرف أن الحياة معناها واسعٌ، فهي تشمل الدنيا والآخرة، فلا نحزن على شيءٍ حزنًا شديدًا؛ لأنَّ هذه الدنيا قصيرة جدا بالنسبة للحياة الآخرة، لذلك أمرنا الله أن نعمل فيها ونجتهد ولا نتكاسل حتى نطوِّر حياتنا ونُعمِّر الكون حولنا، فننال بذلك رضا الله عزوجل الذي قال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، وقال أيضا: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥). هكذا فَهِمَ المسلمون الاوائل آيات الله، وآمنوا بها، ففتح الله على أيديهم البلاد، وكان لهم دور بارز في بناء الحضارة الإنسانية.







ما رأيك يا بُنَيَّتي بعد أن نصل إلى البيت أن تقومي بعمل بحث على شبكة الإنترنت عـن العلمـاء المسلمين الذين كانـت لهـم اختراعـات وكشـوف علميـة أفـادوا بهـا البشرية.

البنت: رائعٌ يا أمي.. وسأكتب نتائج هذا البحث وأقوم بطبعها وعرضها على معلمة العلوم في الحصة القادمة، وسأشاركها زميلاتي أيضا ليستفيد الجميع منها..

أمي انظري .. لا زال الإعلان موجودا!!

الأم: لقد توقف المطر منذ نصف ساعة، وأصبح الجو جميلًا.. يبدو أنهم سيقدمون العرض في موعده..

وبالفعل ذهبنا وأخذنا التذاكر، ودخلنا وكان العرض ممتعا، وخرجنا فرحين وتذكرتُ انني منذ وقت قصيركنت حزينة، فسألتُ أمي: هل كل شئ يقّدره الله فيه حكمة؟



الأم: نعم يا بنيتي لأن الله عزوجل من أسمائه الحكيم، لكن هناك حِكم ظاهرة نستطيع أن نعرفها، وهناك أمور لا تظهر لنا الحكمة منها، ولا يكشفها الله لنا، لاننا في اختبار الدنيا كما قلت لكِ.

البنت وهي تفكّر: تُرى ما هي الحكمة من سقوط المطر هذه الليلة يا أمي؟

الأم: المطر لم يسقط علينا وحدنا، قد تكون هناك حكمة لا نعرفها، لكن ما أعرفه أنه كان سببا في أن نتحدث عن الإيمان بالقدر، وأظنها كانت فرصة جيدة خاصة أن اليوم انتهى كما أحببتِ.

البنت: الحمد لله يا أمي كان يومًا جميلًا ... استمعت فيه كثيرًا واستفدت.

